

أثر المرأة في النهضة القومية

للآنسة فلك طرزي

في هذه الآونة المصيبة التي تجتاز فيها الدول الأوربية أزمة سياسية خطيرة قد تؤدي إلى حرب طاحنة تقضي على ما بذلته الأمم المتقدمة من جهود في سبيل رفع المستوى الانساني وإيصاله إلى المثل الأعلى للنشود — يجدر بنا نحن الذين تضمنا حالنا الحاضرة إزاء مشاكل دولية دقيقة ، أن نلقي نظرة على أحوالنا الشخصية منها والسامة ، نظرة نافذة تاقية نسبر بها أغوارنا ، لنفحص على بيته ووضوح كل ناحية من نواحي هذه الأمة ، فإن اهتدينا إلى تشخيص الملة الأساسية التي تسبب لنا أنواعاً من الآلام والأسقام ، استطعنا بعد دقيق الفحص وبتد التأمل ، إيجاد العلاج الذي يبرئنا شيئاً فشيئاً من هاتيك الآلام والأسقام ولقد جربنا على عادة لست أدري أنسب ما نحن فيه من قلق وفوضى إليها ، أم أنسبه إلى الظروف الطارئة التي كانت الحائل بيننا وبين ما نصبو إليه جميعاً من واسع الآمال والأمان التي نبتغيها كاملة صحيحة ؟

جربنا على أن نبذل في مجتمعنا الكثير من بضاعة الكلام ، ونعرض على الأنظار أشكالاً مختلفة من أجناسها وألوانها ثم نهمل العناية بتحويل هذه البضاعة إلى صنوف من العمل الثمر ، لنبصر بالدين ما سمناه بالأذن ، ونلمس باليد ما صورناه بالكلام

وتأسلت هذه المادة في أنفسنا بحكم ما أوليناها من شديد الرعاية والعناية ، وأخذت تضغط بقوة أثرها الذي تغفل في كل حافية من خفايا نفوسنا على بقية القوى الكامنة فينا التي في استطاعتنا إذا تفرقت الوسائل الممهدة لسبيل إبرازها — أن تستغلها أحسن استفلال فنستعين بما تمنحنا من رغبة في العمل وصبر على الجهاد ، على تذليل المثرات التي قد تترض سيلنا أثناء قيامنا بتحقيق أقدس الأهداف وأنبها

فأى كلام يشرنا بهضة اجتماعية مباركة تضاهي النهضات الأوربية الحديثة لم نسمعه ؟

وأى كلام يبيئنا فحواه بمستقبل نير وضاح يبعد سطوع شمسه ما تراكم من سحب وغيوم على سماء حياتنا فحجب روتقها وصفاءها ، لم نصنع إليه ؟

بل أية آمال وضاءه لألاءة لم نبصرها شذرات متفرقات في هبوب الريح بعد أن أصفينا إلى رنين ضحكاتها يتردد بين قيم الألفاظ وجمل المبارات ؟

لقد سمنا كلمة «البشرى» تتردد على الأنواء حلوة فحسبناها لفظاً مبطناً بحقيقة تحمل إلينا ماني الحياة من معاني الكمال والحسن وسمنا كلمة «المستقبل» ترتل أناشيدها الشفاء ، فحسبناها لحناً مستمداً من القلب تكن وراءه الحيوية البديعة الخالقة

ثم أصفينا إلى صوت الأمل تتجاوب نبراته بين السطور ، فحسبناه أغنية تهدد أنفسنا الظلمة المكدودة على نفاثها وتدعونا إلى سنة من عميق النوم ولديده ، فلبينا ما حسبناه صواباً ورحنا في سبات عميق استغرق سنين طوالاً فقدنا خلالها الكثير من الصفات الشخصية والشعبية ، تخملت حيوتنا ، وبلد تفكيرنا ، وانحصرت عقليتنا ضمن ذاكرة تمددها الأوهام وأشباح التقاليد البالية التي قضت عليها وبددت ظلماتها أنوار العلم والثقافة

ولما استيقظنا من نومنا ، واستفقتنا من سباتنا ، تلفتنا بعنة ويسرة ، وأدركنا رؤوسنا ناحية الغرب وناحية الشرق ، فإذا بكل من هذه اللغزات تضع أنظارنا المشدوذة إزاء تطورات قومية وشعبية ، وتنبه حواسنا المخدرة على انقلابات فكرية وعقلية ، فن أقمسى الشرق إلى أقمسى الغرب ، تمخز نحو المجد والتقدم ، كل أمة تجاهد وتستميت في سبيل التفوق وفرض السيادة على العالم سواء من الناحية الملمية أم الفكرية ، أم التجارية . وقد رأينا كيف أخذت اليابان تكسح الأسواق العالمية ببضائنها وتجارتها . وعمدت بمض الأمم إلى التمسك بنظرية تفوق جنسها على بقية الأجناس البشرية بلوغ ما تصبو إليه من عزة وقوة ونفاز . كل هذه القوى الفعالة التي مهدت لها سبيل البروز والظهور الحرب المالية الكبرى وما ينتج عنها من التطورات والانقلابات تجري حوادثها أمام أنظارنا ، فنسمع بالخيل قرعة الأسلحة والمدافع تدوى وتنذز بالويل والتهديم ، وهي مازالت آلات مفككة تحت آلات المصانع ، وتندرك بالمقل

وإني ما تساءلته قط إلا ليقتيني بأنه يدور في خلد كل منا ،
وإننا جميعاً منذ أخذت أنفاس اليقظة نتفح على وجوهنا فتحات
الجد والتوhip ، لا نفتأ نولي أنظارنا ناحية الغرب تتبع
حركاته وخطواته وترقب تطوراته ، نستعين بما يسن من قوانين
ودساتير على تنظيم هياتنا الحكومية والادارية ، ثم نقبس من
مدنيته قبسات تجعل حياتنا شبيهة بالحياة الغربية من بعض نواحيها
ولم لا تساءل ، وبالتساؤل نتعرف مدى شعورنا ومبلغ قوته
وغزارته ؟

ولم لا تساءل وبالتساؤل زداد إحساساً بنقائصنا ؛ وكلما ازدادنا
إحساساً بها ازدادنا رغبة في التبرؤ منها ؛ وليس الشعور بها
شعوراً دقيقاً صحيحاً إلا بشيراً بزوالها

فنحن إذن المرضى ، ونحن إذن الأطباء ، نسمع أنات الألم
تزفرها صدورنا المكومة فنكف على هذه الصدور ن شخص
داهما وتبين علما ، فإذا ما انكشفت الملة والهاء سهل علينا
وصف الدواء الذي يجدد قوى أمتنا ويشفيها من آلامها

إن أمتنا مريضة في هذه الآونة أيتها السيدات ؛ ومرضاها
لا تشكو منه ناحية من جسمها دون بقية النواحي ، إنما هو مرض
يشمل جميع أطرافها ويخشى عليها من فتكها ، إذا لم نسارع إلى
إقازها من برائته هي مريضة في تفكيرها ، مريضة في ثقافتها ،
مريضة في عقليتها ، مريضة في أخلاقها ، ثم هي مريضة بسبب
الملة الزمنة التي أصابت موضع القلب منها

فأي شأن من هذه الشؤون يمالج قبل الآخر يا ترى ، ليم
لنا ما نريد ونبلغ ما نصبو إليه جميعاً من سميم أنفسنا ؟
أعمال ثقافتها ، والعقلية التي تهضم هذه الثقافة وتستهضمها
ما زالت تلقى مقيدة ؟

أم نعالج أخلاقها ، والأداة التي تعالج بها هذه الأخلاق
- وأعيى بها الإرادة - ما برحت ضعيفة واهنة ؟

أم نعالج الفكر ، والصلة الوثقى التي تربط الفكر بكل ما في
هذا الكون من خفايا الأمور وأسرارها مفككة الأجزاء ؟
أنا أرى أن أول شأن يجب معالجته قبل بقية الشؤون هذا
القلب ، أيتها السيدات ، لأنه ميزان الحياة الدقيق ، والصلة التي تربط
الإنسان بها ، ومتى قامت بين الإنسان والحياة رابطة متينة تغفل

مبلغ الرقي الذي توصلت إليه في الغرب الآداب على تنوع بحوثها
والعلوم على مختلف أنواعها ، والفنون على تمدد فروعها ، تلك
القواعد الثلاث التي لا تقام حضارة أمة بغير أسسها ، وتتعرف
بالاختبار أي أثر بليغ تتركه التربية المائلية في نفوس الناشئة ،
وأية توجيهات مختلفة توجهها المبادئ التي تلقاها في محيط الأسرة
حين الصغر ، فالناشئة التي تزدهر سنو طفولتها في وسط يدرك
الحياة على حقيقتها ويتمق في معانيها ويمسرها غاياتها ، هي غير
تلك التي تنمو وتثب في آخر لا يدرك من الحياة إلا سطحها ،
ولا يفقه من معانيها وغاياتها إلا قشورها دون لبانها

ثم تلقى نظرة إجمالية إلى تلك القوى التي تسير العالم المتمدن
فترها منهزمة مرة ، منتصرة أخرى ، ناهضة تارة ، منحلطة تارة
أخرى ، مجسمة في حال نهضتها وانحطاطها ، واتصارها وانهازها ،
صورة الانسان في آلامه وآماله وجبروته وعجزه ، ويطشه وضغته ،
وطموحه ومطامعه ، صورة الانسان الذي كلما اكتمل تكوينه
العقلي والجسدي ، اكتشف قوائص جديدة تخل من توازنهما
فيتمد إلى مختلف الوسائل يتوسل بها لتقويتها وضبط هذا
التوازن بينهما

وكثيراً ما يثمر بالصدمات فينهزم حيناً تمود بصدفه نفمة
الأمم تنفخ في صدره حارة تمنحه قوة أشد بأساً من كل قوة
تحميه فشله وهزيمته ، فيماود الكفاح والمناضلة من جديد ، وكلما
عراه ضعف يقاومه بالإرادة والطموح النفسي إلى أن يتقلب عليه
فأي شعور يمترينا يارى ساعة يتجسم في مخيلاتنا بعض من
صور هذه القوى التي عرضتها الآن ؟

بل أي إحساس تتحمسه عند ما نأخذ بتقييد كل صنف من
صنوف الرقي الذي أمدته الأمم كل من هذه القوى وسهدت له
السييل لتحقيق غاية من الغايات ؟

لاشك أننا تتحسر وتقبض صدورنا ألسنا كلما تنازعتنا
فكرة نهضتنا القومية الفتية وإلى جانبها النهضات القومية الأخرى
التي قطعت شوطاً بعيداً في مضار التقدم والحضارة
وثقن أيتها السيدات أنني لا أبني من يساؤلي هذا إضافة
حسرة جديدة إلى ما نشره به من حسرات تمتشى بين جنباتنا
كلما شاعت في نفوسنا مرارة هذا التساؤل

فكره في زواياها وخلاياها وأدرك كل معنى من دقيق معانيها ،
وشعر بها تتفجر في أعماقه قوة وحيوية
فإن كان القلب سليماً خفياً ، جرت الحياة في شرايين الجسم
حارة متدفقة
وإن كان سقيماً عليلاً بلدت حركتها واعتراها كثير من
الضعف والخلول

فإذا نحن طالنا القلب ودققنا في تشخيص دأبه ، فمضى ذلك
أن كل واحدة منا انمكنت على ذاتها ، وأخذت تفحص هذه
الذات على نور من البيئة ، فإن بدا لها ضيق في ناحية من نواحيها
وسمته ، وإن اتضح لها نقص قومته ، لأن المرأة من هيكل
الامة بمثابة القلب من جسم الانسان يضبط توازنه ، وينظم الحركة
الحيوية فيه

وقد يعترض على قولي هذا معترض ، ويخالفني مخالف ، مبيناً
ما يزعمه من خطأ هذا القول . غير أن في نفسى من العقيدة البنية
على عديد التجارب ، ما يجعلني أومن بهذه الحقيقة إيماناً صحيحاً
لا يخامر شك ولا يزغزعه ريب .

ولم لا نفر بها وكلنا يعلم أن المرأة صريية الرجل ومهذبته ،
ومعلمته الأولى في مدرسة الحياة ؟

ولم ترتب في صحتها وقد علمنا الماضي من تاريخ الانسانية
وحاضره أن نصف الأمة لا يصلح إذا بقي نصفه الآخر مشلولاً ؟
بل لم لا تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار ، وقد لمسنا أثر
المرأة البعيد وانحما في تكوين نفسية الطفل ، وعرفنا مدى تأثيرها
في حضارة الأمم ؟

فنحن إذا نفذنا إلى دخيلة أمتنا وتغلغلنا في كل مناحيها ،
مرهقين السمع إلى دقات الحياة ينبض بها قلبها ، فماذا نسمع
أيتها السيدات ؟

أنسمع دقات يؤولت مجموعها وحدة موسيقية جميلة اللحن ،
منسجمة النغم ، تطرب لسامعها القلوب وتوسر ؟

كلا ! إننا لا نسمع إلا دقات متفرقات ، تنبض مضطربة
حائرة ، لا تكاد دقة منها تنبث من بين الصلوع مترنة قوية ، حتى
تنبعث أخرى وأخرى ، تميد القلب إلى مجرى الفتور والخلول الذي
كان عليه .

فالريش إذن من جسم أمتنا هو القلب ، وأول الأدواء الذي
تجب مداوانه هو دأؤه لأن عقل الأمة المفكر الذي هو الرجل
لا يصبح دقيقاً صحيحاً إلا إذا شفي هذا القلب وعاد ملاذاً أميناً
يأوى إليه العقل ليجدد بقربه قواه الفكرية ، ويستعين بصيرته
النافذة على استكشاف ما غمض عليه من أمور .

منذ أيام كنت أتحدث إلى عالم جليل وزعيم في طليمة الزعماء
الذين أحيوا الحركة القومية في هذه البلاد وبمئونها حية من تحت
أردية الموت . ومما قال لي هذه الجملة التي ينطوي معناها الدقيق
على حقيقة بليغة :

« إذا أبصرت عبقرية تشع أنوارها وتتلألأ في سماء المجد
ساطمة ، فأيقنى أن وراءها امرأة توقد جذوتها وتبعثها
من مكنتها . »

عبقرية تبث فيها الحياة امرأة ؛ وتوقد شملتها بالقدسة
فتنحورها نوراً ينشر ضياءه اللامع على مشارق الأرض ومغاربها ،
مخترقاً النفس البشرية موححاً ما غمض من أمورها ، كاشفاً ما خفي
من الغايات ؟

إنها نعمة انبثت أول ما انبثت من أرض عربية ، ثم
انتشرت على بقية الآفاق ففتناها أبناء الغرب وما زالوا يتفنون
بها بينما نحن نسينا لحنها

إنها نعمة انبثت إلى الوجود يوم انبثق فجر الرسالة العربية
من آفاق غار حراء ، وأخذت أشسته النيرة تحترق قلب كل عربي
فتبدل كفره إيماناً ، وشكوكه ثقة وعقيدة ، ويوم كانت إلى
جانب الرسول العربي الكريم أمراً تهي عبقرية النبوة في قلبه
كلما أصابها قرية من سهام الفترين

غير أنني لا أحمل المرأة وحدها تبعات هذا النسيان ؛
فلشريكها الرجل نصيب غير ضئيل منها ، لأنه أهمل شأنها زماناً
طويلاً وأسرف في هذا الإهمال ، فكان من جرائه أنها بقيت
قابعة في زاوية مظلمة من زوايا الحياة لا تشترك في أمر من أمورها
حتى تكون لدى الكثير من الرجال اليقين بأنها مخلوق وجد
ليجيا على هامش الحياة ، وأن جميع حقوقها وامتيازاتها
محفوظة للرجل في كل زمان وفي كل مكان
لست في حاجة ، أيتها السيدات ، إلى إثبات خطأ هذا الادعاء ،

إذا توصلت المرأة إلى صقلها وتهذيبها استحالت من مخلوق بشري إلى ملاك سماوي يحمل بين جوارحه معاني الرأفة والحب والحنان والمرأة شاعرة بطبيعتها وفطرتها ، فإن هي عرفت كيف تنمي هذه الشاعرية فيها ، وعرفت كيف تغذيها ، تحولت كوكباً ينبعث من صميم الحياة نوراً يفسر على هذه الحياة أشعة من الود والصفاء

فأثر المرأة لا يظهر جلياً وانحاً في النهضات القومية ولا يخلف بصدده أفضالاً وحسنات ترفع الأمة من الحضيض إلى العلاء ، إلا حين يستيقظ فيها الحس العميق بوجوب تهذيب الصفات الطبيعية التي فطرت عليها ، ويحولها من غريزة إلى شعور سام رفيع ، يجعل من رسالتها إلى الأمة ، رسالة الحياة وكل ما تحوى هذه الحياة من معاني المجد والحضارة والازدهار .

فلنستمن سيداتي بما ترك لنا أولئك الذين أدركوا النفس البشرية على حقيقتها ، واستطاعوا بقوة بصيرتهم اختراق لفاتقها والنفاذ إلى أعماق موضع فيها ، لنستمن بأوار نفوسهم على إنارة نفوسنا ، فإننا ما نفذت هذه إلى أعماقنا واستقرت فتحت أعياننا على عوالم من مختلف المشاعر والمواقف تحيا في هذه الأعماق فهدينا إلى كل موضع من مواضع السحر والجمال التي يحويها العالم الخارجي لتأمل مفاتنه ونسنى إلى موسيقاه ، فمن كان له قوة التأمل وقدرة الاصغاء أدرك كبار الحياة وصناعاتها . ويخيل إلى أن نجاح أمتنا وحضارتها متوقفان على دقة البصر وإدراك السمع . ومن غير المرأة التي فطرت على الاحساس يدرك هذه الدقائق ؟

فلك طرزي

« دمشق »

إلى رؤساء المدارس

أستاذ ماهر في اللغة الإنجليزية . ماجستير في العلوم والآداب . متخرج من جامعة شهيرة . مارس فن التدريس مدة طويلة : يدرس حالياً في إحدى الكليات الإنجليزية بمصر . لديه من الوقت للتدريس في مدرسة أو كلية أخرى

✦ المحاضرة مع الأستاذ جاريد ✦

صندوق البوستة رقم ٢ بمصر

لأن جسامته خطئه وانحته فيه . بل ما أريده هو كشف اللثام عن ادعاء لست أدري أيسر التصريح به أسيادنا الرجال أم بنصبيهم إن إصراف الرجل في أنانيته قد حمله على إبعاد المرأة عن جذر الأمور وخطيرها ممللاً ذلك بسبب مجردها من الصفات العقلية والفكرية التي تمكنها من إدراك دقائق هذه الأمور وتقدير خطورتها

وكأن في هذه الدعوى بل هذه النظرية البنية على غير الواقع قد سرت بالمدوى إلى المرأة فأخذ وهما يستولى عليها مع مرور الزمن شيئاً فشيئاً حتى أضحت لديها حقيقة واقعة بخيل إليها أنها تبصر وميضها يشرق من نوافذ عقل الرجل ناسية أنها الأم التي أنشأه طفلاً وكوته رجلاً ، وأنها الزوج التي قامت الحياة على السراء والضراء . فنشأ فيها من جراء هذه الملاحظة ضعف أضاف إلى ضعفها الطبيعي ضعفاً آخر ، وجعل منها بهاناً يدعم به الرجل سحرة دعواه ، ودليلاً يثبت خطأ هذه الدعوى

وقد انطبعت في المرأة السورية هذه العقيدة المغلوطة ، وتمكنت من عقولها إلى حد جعلها على اليقين بصحة النقص القائم بينها وبين الرجل ، وأنها حقاً دونة عقلاً وفكراً وإدراكاً ، وتناست أن مستواها العقلي والفكري كان قد يساوي للمستوي العقلي والفكري عند الرجل ، لو أن أنانية هذا لم توح إليه بإهمال شأنها وإهمال رفع مستواها إلى أوج الكمال النسبي

فأخذت نظرتة إليها — أي الرجل — تنحط مع الزمن وتنحصر ضمن نطاق محدود ، وأخذت اعتباره إياها يتضاءل يوماً بعد يوم ، حتى أصبح ذات يوم وفي نفسه نحوها احتقار يبيح لدهانه الحط من قيمتها واعتبارها وسيلة من وسائل اللغو والتسخير فليس عجباً أن نفيق بعد هجنتنا الطويلة فنبيصر حال المرأة في أوساطنا متهمرة ، وقد أدركنا سر هذا التهمير . وليس بمستغرب أن نرى الرجل في هذه الأوساط ناقص التربية ناقص التهذيب وقد وقفنا على سبب ذلك النقص . إنما المستغرب في كل هذه الأمور أن ندرك سرها وأسبابها ثم نقف عند حدود الإدراك دون أن نتجاوزها إلى حيز العمل ، حيث تظهر حقيقة المرأة ويسطع جوهرها

وفي المرأة أيتها السيدات صفات فطرية مفقودة عند الرجل ففي حساسة بفرزتها رقيقة بطبيعتها ، والحس والرقة صفات